في بلاط الخلفاء

بين الشعبي وعبد الملك

للأستاذ علي الجندي

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

أقبل الخليفة على رجل جالس بين يديه يرتدي جبة(١) خز قد ابيض شعر رأسه ولحيته ، وتدلى من عنقه صليب ذهب ، ورائحة الخمر تنفح من عارضيه ! فقال له : ويحك ! من أشعر الناس ؟ فأجاب الرجل — وفي صوته رنة الزهو والخيلة والثقة بالنفس — أنا يا أمير المؤمنين

ولم يكد الشعبي يسمع هذه الكلمة حتى تمعّر وجهه ودارت به الأرض ، فذهل للمرة الثانية عن آداب السلوك في حضرة الملوك ، فصاح بصوت يقطر غيظاً : من هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس ؟

ما كان أغنى الشعبي عن هذا السؤال لو أنه روّى في الأمر قليلاً ! ترى من يكون هذا الجالس بين يدي الخليفة جلسة الصديق المدلّ بمكانته غير أمدح مُدّاح الإسلام ، وأدب أدباء النصرانية ، ولسان تغلب ابنة وائل ومدره ربيعة ، والمنافح عن البيت الأموي وشاعر أمير المؤمنين أبو مالك الأخطل ؟

لم يستطع عبد الملك أن يكتم استجابه من عجلة الشعبي بالسؤال وجهله بشاعره الفذ وجرأته عليه ! ولكنه تكلف الحلم وري الشعبي بنظرة نفذت إلى أعماقه قائلاً : يا شعبي ، هذا شاعرنا الأخطل

وكان ما حدث كافياً أن يرد الشعبي إلى صوابه ويَفْثَأ من غضبه على الأخطل ، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث ، فولّى وجهه شطره — زاوياً ما بين عينيه — وهتف : يا أخطل ، أشعر منك الذي يقول :

هذا غلام(٢) حَسَنٌ وجهُه   مُقْتَبَل الخير سريع التَّمام

(١) تراجم الأخطل في الأغاني وغيرها

(٢) الأبيات للنابغة الذبياني

للحارث الأكبر والحارث الأصـغر ، والحارثُ خير الأنام

ثم لهند ولهند فقد   أسرع في الخيرات منه إمام

خمسةٌ آباؤُهم ما هم ، هُمُو   خير من يشرب صوبَ الغمام

وكأن عبد الملك أعجبته هذه الأبيات فسُرِّي عنه وقال : ردّدها عليّ . فردّدها الشعبي عليه حتى حفظها

نال هذا التحدّي من الأخطل وشعر بالصغار والضعة ، فمسح بيده على جبينه الندّي وقال في غمغمة الضجير : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال عبد الملك على أحد جانبيه قائلاً : هذا الشعبي فقيه العراق . فزمّ الأخطل بأنفه وأرسل نفساً عميقاً وقال : أمير المؤمنين — حفظه الله — إنما سألني عن أشعر أهل زمانه ، ولو قد سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريّاً أن أقول كما قلت

وهمّ الشعبي أن يتكلم فقاطعه عبد الملك بالسؤال عن حاله — وقد شُغِل بالحوار عن ذلك — فقال : إني بخير يا أمير المؤمنين

ومضى يتأنق في صوغ المعاذير عما كان من خلافه على الحجاج وخروجه مع ابن الأشعث

وكانّ عبد الملك نبيلاً حقاً فابتدر قائلاً : مَهْ يا شعبي فإنا لا نحتاج إلى هذا المنطق ، ولست تراه منا في قول ولا فعل حتى نفترق ! وأراد أن يزيد في طمأنينته فغير وجهة الحديث قائلاً : ما تقول في النابغة ؟ فقال الشعبي : إن عمر بن الخطاب قد حكم له بالسبق في غير موطن على الشعراء . وذلك أنه خرج يوماً — وببابه وفد غطفان — فقال : يا معشر غطفان ، أي شعرائكم الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : النابغة . قال : فأيكم الذي يقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا : النابغة . قال : فأيكم الذي يقول :

إلى ابن مُحرِّق(١) أعملت رحلي   وراحلتي وقد هَدَتِ العيون

أتيتك عارياً ، خَلَقٌ ثيابي   على خوف تُظَنُّ بيَ الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : النابغة قال هذا أشعر شعرائكم

(١) يمدح النعمان بن المنذر

ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال : أتحب أن لك قياضاً بشعرك شعرَ أحد من العرب ، أو تحب أنك قلته؟ قال : لا، والله، إلا أني قد وَدِدت أني قلت أبياتاً قالها رجل منا ؛ كان والله مُغْدِف(1) القناع ، قليل السَّماع ، قصير الذراع ! قال عبد الملك : وماذا قاله ؟ فأنشده الأخطل القصيدة :

إنا محيوك فاسلم أيها الطَّلَل   وإن بَليت وإن طالت بك الطيل

حتى وصل إلى قوله :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقبل أن يسمع الشعبي رأى عبد الملك في الشعر ، هتف بالأخطل في لهجة التهكم الساخر : تالله لقد قال القطامى أحسن من هذا ! فأدنى عبد الملك تفاحة إلى أنفه فشمها ، ثم قال : وماذا قال القطامى ؟ فأنشده الشعبي :

طرقت جَنُوبُ(2) رحالنا من مطرَق

ما كنت أحسبه قريب المعنَق

ومر في القصيدة إلى قوله :

وإذا يصيبك — والحوادث جمّة —

حدثٌ ، حداك إلى أخيك الأوثق

ليت الهموم عن الفؤاد تفرقت   وخلى التكلم للسان المطلق

فترنح عبد الملك طرباً إلى الشعر وإعجاباً به! وصاح : ثكلت القطامى(3) أمه ! هذا — والله — الشعر !

ونظر عبد الملك إلى الأخطل ، فإذا هو كالمغشى عليه من الموت فأخذته الحمية لشاعره ، وداخلته الشفقة عليه ، فقال ينعش نفسه ويشد منها : ما أشعرك يا أخطل حين تقول في وصف الخمر

وتظل تنصفنا(4) بها قروية   إبريقها برقاعه ملثومُ

فإذا تعاورت الأكفُّ زجاجها   نفحت فشمّ رياحها المزكوم

لم يخف على الأخطل ما أراده الخليفة ، فألقى على وجهه نظرة ملؤها الغبطة والرضاء ! ثم عطف على الشعبي — والزهو يبعث بعطفيه — فقال : أسمعت بمثل هذا يا فقيه العراق ؟ !

فتربع الشعبي في مجلسه ، وتنحنح ، وأمر يده على لحيته

(1) مظلم   (2) اسم امرأة   (3) يقصد التعجب منه لا الدعاء عليه
(4) تخدمنا وتسقينا

إمراراً خفيفاً ، ثم صاح في وجه الأخطل : بعض تحبُّبك ! فأشعر منك والله الذى يقول :

وأدكنَ(1) عاتق جحل ربحل

صبحت براحه شرباً كراما

من اللائى حُملن على المطايا   كريح المسك تستل الزكاما

فقال الأخطل : ويحك ! ومن يقول هذا ؟ قال الشعبي : يقوله شيخك أعشى قيس . فصاح الأخطل كمن أصابه مسّ : قدُّوس قدوس ! !

ولم يسع عبد الملك إلا أن يحكم للأعشى على الأخطل : إذ هناك بون بعيد بين خمر يشمها المزكوم ، وخمر تستل منه الزكام ! وهنا يشعر الأخطل بالخطر المحدق به ، ويرى أن ريحه قد لاقت إعصاراً ! وأنه رمى من هذا العراقى الدخيل بالداهية النكراء ! لقد استطاع أن يسدد إليه سهاماً قاتلة في جلسة واحدة ! فما الظن به إذا تطاولت المدة وتراخت الأيام ؟ ! إنه لا محالة سيغلبه على مكانته من الخليفة ، وسيسحب عليه ذيل الخمول ! فتنبهت في نفسه غريزة المقاومة التي أرهفها طول النضال بينه وبين جرير وغيره في ميدان المهاترة ! فورم أنفه وانتفخت أوداجه ، وانتفشت لحيته ، ودارت عيناه في رأسه كأنهما جذوتان مسعرتان ! وفغرفاه يدير فيه لساناً كأنه لسان ثور ! واتجه إلى الشعبي هاتفاً بصوت فيه مشابه من هدير البعير المغتلم : إسمع يا شعبي ، إن لك فنوناً في الحديث وشجوناً في المحاضرة ، وإن لنا طريقاً واحداً لا نحسن غيره ، ولست إخالك غير نادم من عنائك حتى تحملني على أكتاف قومك فأدعهم حرضاً ! !

فعلت هذه الكلمات النارية أفاعيلها في الشعبي ! فمثله لا ينكر صولة هذا التغلبي الذى لم يتورع عن هجاء الأنصار ! ويعرف أن أبياتاً من هجائه الممض الخبيث قد ترمى بقومه من حالق وتجللهم عار الأبد ! فيكون أشأم همدانيّ على همدان !

ولم يكد يتمثل الشعبي سوء هذه المغبّة حتى ذابت حماسته فتقبع في مكانه كالقنفذ المذعور ! وساورته الرعدة من لمة رأسه إلى أخمص قدميه ! فالتفت إلى الأخطل ضارعاً يقول : أقلني

(1) يصف زقا من زقاق الخمر بالدكنة والاتساع والعظم

هذه المرة يا أبا مالك ! ولك علىّ عهد الله وميثاقه ألا أعود لمثلها أبداً !

وأحسّ الأخطل نشوة الظفر ! فقال (ماطًّا صوتَه) : ومن يضمن لى ذلك أيها الشيخ ؟ فرفع الشعبي إلى عبد الملك عينيْن منكسرتين متوسّلتين قائلاً : أميرُ المؤمنين

فضحك عبد الملك حتى بدت له سِنّ سوداء كان يسترها ! وقال : أنا ضامن يا أخطل ألاّ يعرض لك بشيء بعد هذا !

فقال الأخطل : وأنا قد صفحت عنه يا أمير المؤمنين !

وأراد عبد الملك أن يصل ما انقطع من الحديث فقال : ياشعبي أى شعراء الجاهلية أشعر من النساء ؟ فقال الشعبي : الخنساء . قال : ولِمَ فضلتها على غيرها ؟ قال : لقولها فى أخيها صخر :

وقائلةٍ (والنعشُ قد فات خطوَها
لتدركه) : يا لهف نفسى على صخرِ
ألا ثكلت أمُّ الذين غدوْا به
إلى القبر ! ماذا يحملون إلى القبر ؟ !

فقال عبد الملك : أشعر منها ـ والله ـ ليلى الأخيلية حيث تقول فى توبة :

مهفهف الكَشْح والسربال مُنخرق
عنه القميصُ لسير الليل مُحتقِر
لا يأمن الناس مُمْساه ومُصبحه
فى كل حىّ (وإن لم يَغْزُ) يُنتظر

كان لكلام عبد الملك أثر عميق فى نفس الشعبي ، فانخزل انخزالاً شديداً وكَسَف باله ! لقد انتصر على شاعر الخليفة ولكنّ الخليفة لم يُعتِّم أن أخذ له بالثأر المُنيم ! وقرأ عبد الملك فى وجه الشعبي ما يختلج فى صدره من ألم بَرّح ! فقال : ياشعبي لعله قد شقّ عليك ما سمعت ! فقال : إى والله أشدّ المشقّة ! إنى لم أُفدك إلا أبيات النابغة (هذا غلام حسن وجهه . . .) وقد أفدتنى أفضل منها

فقال عبد الملك : ياشعبي ، إنما أعلمناك هذا ، لأنه بلغنى أن أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ، ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة فلن يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق منهم !

ثم جعل عبد الملك يردد على الشعبي أبيات ليلى حتى حفظها ، فألقى المِخصرة من يده — وهى إمارة[1] الإذن بالانصراف — فنهض الشعبي مودعاً

وخطر لعبد الملك أن ينتفع (بدبلوماسية) الشعبي ، فأوفده[2] إلى ملك الروم . قال الشعبي : فلما دخلت عليه جعل لا يسألنى عن شيء إلا أجبته ، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة فأمسكنى عنده أياماً . فحين أردت الانصراف قال لى : أمن بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكننى رجل من العرب ... فدفع إلى رقعة خاصة وقال : إذا أدّيت الرسائل إلى صاحبك فسلمها إليه . فلما رجعت إلى عبد الملك ، دفعت إليه الرسائل ونسيت الرقعة ، ثم تذكرت بعد خروجى من الباب فكررت راجعاً ودفعتها إليه . فقال لى : هل قال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك ؟ قلت : نعم ، سألنى : أمن بيت المملكة أنت ؟ فقلت : لا ، ولكننى من العرب . ثم خرجت فلما وصلت الباب حتى ردنى إليه فقال : أتدرى ما فى الرقعة ؟ قلت : لا . فنبذها إلىّ وقال : اقرأها . فقرأتها ، فإذا فيها : عجبت لقوم فيهم مثل هذا كيف ملّكوا غيره ؟ ! فاحتدمت غيظاً ، وصحت مرتجناً : يا أمير المؤمنين ، والله لو علمت ما فيها ما حملتها ! وإنما قال هذا ، لأنه لم يرَ أمير المؤمنين ! فضحك عبد الملك وقال : أتدرى لِمَ كتبها ؟ قلت : لا . قال : حسدنى عليك فأراد أن يغرينى بقتلك ! ولكن خاب فأله ! فاذهب لا بأس عليك !

وقد نبل الشعبي فى عين عبد الملك وجلت مكانته ، فبالغ فى إكرامه وتقريبه منه ، حتى كان أول من يدخل إليه وآخر من يفارقه ! وصفوة القول : أن الشعبي فى دولة عبد الملك هو الأصمعى فى دولة الرشيد .

على الجندى

(١) التاج (٢) ثمرات الأوراق ج ـ ١

الافصاح فى فقه اللغة

معجم عربى : خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويمدك باللفظ حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب ، ثمنه ٢٠ قرشا يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى ، عبد الفتاح الصعيدى